تفاصيلُ وجعٍ على الإنترنت

زكيّة علال ❖

العالم يتكوّر في ذيل القرن، حتى يغدو كرةً ثلجيةً زائفة، اقتحمها السوادُ عنوةً. تتدحرج الكرةُ الثلجية السوداء، وتذوب عند قدميَّ بفعل حرارة النكسة التي سكنتني، فأجد نفسي أسبح في فضاءٍ مفرَغ: لا أرضٌ تقف فوقها قدماي، ولا سماءٌ تحتمي بها أحلامي، ولا بشرٌ يسبحون في الشارع. بل لا أثرَ للشوارع، ولا البيوت، ولا... أحسستُ أنّ العالم أَفْرغ نفسَه في عمقٍ محيطٍ لا قرارَ له، وأنّي أتمايل كبلونةٍ لا تعرف أين تستقرّ.

سحبتني المرارةُ إلى بيتي حمامةً ضيّعتْ بياضَها وسلامَها، فأفاقت على ألوانٍ شتّى تتعاقب على خارطة روحها.

أجيءُ طفلةً محمّلةً بخطايا الكبار، ومرهَقةً بحماقتهم.

أجيءُ: خوفٌ من ورائي، وبردٌ قاتلٌ يسبقني إلى غرفتي ليَحْملني إلى فراشي. أُخْرج يدي من جيبِ عُمرٍ غابرٍ. أَدْفع البابَ بضعف الهزيمة التي سكنتني، فأجده يُفتح على تضاريس مدينة مجهولة.

أَلِجُ الداخل، يتقدّمني جيشٌ من الرياح العاصفة العقيمة، وتَحْرسني من ورائي فرقةٌ من الخوف الذي احتواني منذ استيقظتِ الشوارعُ على طوفان من الدمِ والدموعِ والجثثِ المشوّهة.. ودخانِ أحلامٍ أحرقتْها الحماقةُ.

حاولتُ أن أنير ظلمةَ الغرفة، لكنْ عبثًا: فالتيّار انقطع كما في كلّ المرات. أفزعني الظلامُ المبعثرُ في كلّ الزوايا كالأشباح.

حين كنتُ طفلة صغيرة ، كنتُ لا أنام على قبس من نور. ضوءُ القمر، الذي كان ينكسر على نافذة غرفتي، لم يكن هو نفسُه يُقْنعني. كنتُ أحبّ أن أُغمضَ عينيَّ على ضوءٍ ساطعٍ كيْ أضمنَ هروبَ الأشباح.

سحبتني رجلاي نحو الأدراج. فتحتُها لأبحث عن علبةٍ كبريتٍ، لكنْ عبثًا: فالظلام يَحْجب عني كلَّ شيء.

لستُ أدري لماذا تملّكني الاعتقادُ أنّ الغرفة مليئةٌ بالجثث المشوّهة، والرؤوسِ المفصولة، والأطرافِ المقطوعة. تخيّلتُ أنّ بعضًا منها يتمدّد على سريري، وبعضًا يختبئ في خزانة ملابسي، والبعض الآخر على أرضيّة الغرفة. خُيِّل إليّ أنّي اصطدمتُ بجثّة، وأنّها تتعلّق بقدمي طلبًا للنجاة. تخيّلتُها امرأةً مفصولةَ الرأس تتسلّق إلى صدري، بل رَجُلاً ممزّقًا يتعلّق بثوبي، بل طفلاً متفحّمًا يزحف نحو قلبي ليعود إليه بياضُه. لكنّني ابتسمتُ وأنا أتحسّسه: فلقد تعثّرتُ بسريري الحديدي.

طال عمرُ الظلام، فتمدّد الخرابُ في داخلي، وكاد يجعل من جسدي المتعب جثّةً تضاف إلى الجثث المتناثرة في الغرفة. ومن وسط العتمة الداكنة تسلّلتْ إليَّ صورتُه. تذكّرتُه، تذكّرتُ سيجارتَه.. دخانَه المتكبّر. لقد كان هنا بالأمس، ولا شكّ أنّه نسي علبةَ الكبريت كما تعوّد: فهو كلّما مرّ بمكان، نسي شيئًا، أو تعمّد أن يترك شيئًا من لوازمه يدلّ عليه. أسرعتُ إلى مكانه أَدفع الظلامَ بذراعين تائهتين. تحسّستُ ظلّه الرمادي بكفّي اليمنى، وخيالَه ـ الذي يلتصق بي ـ بكفّي اليسرى. آه العلبةُ هنا! «ما أروعكَ أيُّها الرجل! ما أغربَ أطوارَكَ التي تمنحني الخرابَ حين تقترب منّي، وتترك لي نورًا عندما تغادرني!»

لم أكد أفتح علبةَ الكبريت، وأُخرج منها عودَ ثقاب، حتى عمَّ الغرفةَ نورٌ أتعبَ عينيَّ. عجيب! لأول مرة يعود النورُ بهذه السرعة، فالضوء. كما كلُّ الأشياء المضيئة في بلدي ، ينطفئ بسرعة؛ لكنّ رجوعَه يحتاج إلى سنين، نَخْسر خلالَها رجالاً وعيونَ أطفالٍ وضفائرَ نساء. وقبل أن يصل المختصّون التيارَ المنقطعَ يكون كثيرٌ من العباد فَقَدوا رؤوسَهم.. أيديَهم.. أرجلَهم.. أحشاءهم، أو جميعَهم في آنٍ واحد، وفي أحسن الأحوال تُسلب منهم أحلامُهم.

تمدّدتُ على سريري الحديدي، وقد تخلّصتُ من عقدة الخوف، بعد أن أوصل المختصّون التيّارَ المنقطع. لم يبق أمامي غيرُ هذا البرد الذي يكاد يعصف بي. ووجدتُ نفسي أَسْخط على كلّ العلماء والأطباء: «سحقًا لهؤلاء العلماء الذين يبحثون للإنسان عن سكنٍ غيرِ

❖ ـ كاتبة جزائرية.

الأرض، بينما الخوفُ يحصد أكثرَ مما تحصدهُ الحروبُ. سحقًا لهم لأنّهم عجزوا إلى الآن عن اختراع أقراص تخلِّصنا من البرد، وأخرى تقتلع الخوفَ من أعماقنا، وأخرى تجتثّ من قلوبنا حبّاً لا نرغب فيه، وأخرى ضدّ الكره...» لو تحقّق ذلك، لكنتُ خلقًا آخر، ولتخلّصتُ من الخوف والجبن، ومن حبٍّ جارفٍ يَرفض أن يغادرني رغم تقدّم العمر.

آه... ماذا لو سطع نجمُ عالِمٍ أَفْلح في أن يُجْلس العالَمَ على كرسيّ الطمأنينة والأمان، كما أفلح علماء كثيرون في تخريب خلايا الأمل في عيون الأطفال، وزَرْعِ قنابلِ الرعب بين ضفائر النساء، وسَحْبِ وسادة الأمان من تحت رؤوس الرجال.. علماء نجحوا في زرع شوكةٍ جافةٍ في حلق العالم، وجعلتْه يتخبّط كمن به مسٌّ من الشيطان.

اللحظةَ، جسدي كلُّه يرتعش. أسناني تتصادم لتُحْدث صوتًا يمزّق صمتَ الغرفة. حاولتُ أن أتدثّر بكلّ الحكايا الدافئة التي عَبَرَتْ حياتي. حاولتُ أن أستشعر الدفءَ من حكاية الطائر الجميل الذي قَذَفَ به البردُ إلى حديقة القلب مفجوعًا، فاحتويتُه بكلّ الأمومة التي تَنْبت في دمي، لأنتبه ـ ذاتَ وجعٍ ـ فأجده صريعًا فوق أسلاك الروح، وبين منقاريْه وردةٌ حمراءُ متفتّحةٌ كان ينوي تهريبَها من مملكتي.

حاولتُ أن أتدثّر بحكاية الرجل الأسطورة الذي ظلّ سنواتٍ يَنْحت في أروقة الروح قصةَ وفاءٍ في زمنٍ تُزْهر فيه الخيانةُ وتتناسل، كامرأةٍ تَحْبل من طيفٍ أو من بريقِ حلم. وتصنع الفجيعة علبة كبريت، يُخْرجها من جيبه، ليُشْعل سيجارةً يتحسّس بها دفءَ الحلم، لكنّها ترتعش بين أنامله، لتنزلقَ في لحظةِ سهوٍ، فتقع، لتَضْرمَ نارًا تأتي على كلّ تمثال الوفاء القائم في مملكتي.

حاولتُ أن أتزمّل بكلّ ارتعاشةِ صدق. لكنْ عبثًا: فصوتُ العاصفة يزمجر من الداخل، من العمق، ليتوزَّعَ في أحلام العمر ويقتلعها، لتركنَ إلى يتمٍ لا دفءَ بعده.

تكوّرتُ في فراشي محتضنةً وجعي، وتيقّنتُ أنّه لم يبقَ أمام خيبتي غيرُ هذا الصحن المقعَّر الذي يسمونه «برابول،» علّه يمنحني بعضَ الدفءِ والأمانِ.

أخذتُ جهازَ التحكّم. ضغطتُ على الزرّ الأول، فجاءت الصورةُ متفحّمةً تحمل كثيرًا من الجثثِ المنزوعةِ الأطراف، المفرومةِ اللحم، الغائبةِ الملامح ، كأنْ لم يكن لها حواسٌّ تحسَّستْ بها زيفَ العدالة المبتورة. غيّرتُ بسرعة نحو قناة أخرى، فامتثل أمامي صحافيٌّ وسيمٌ، يجتهد في رسم ابتسامة باهتة على سطح شفتيه، وهو يحصي عددَ القتلى في مذبحة الأمس. عَبَرْتُ إلى قناة ثالثة، فرأيتُ خلقًا كثيرًا من كوسوفو وهم يُرْمَون كنفاياتٍ سامةٍ إلى مكانٍ لا رجعة منه. هربتُ إلى قناة رابعة، فكانت صورةُ رضيعٍ تملأ الشاشة، وقد أقام عليها الرصاصُ خريطةً بمساحة الخيبة التي تربض في عيون الأطفال. لعبتْ أناملي بكلّ الأرقام اليتيمة والمركّبةً، لكنْ لا شيءَ غير الدم يرسم لوحةً تشكيليةً لفجيعةٍ منتظرة.

اللعنة على هذا الجهاز! عندما اشتريتُه اعتقدتُ أنّني ربحتُ فرحًا. أما اليوم، فقد تأكّدتُ أنّي لم أبتعْ إلا خرابًا.

وهنا تذكّرتُ مقولة الرجل الذي غادرني بالأمس، وترك لي علبةَ الكبريت: «هناك وجعٌ يقتحمنا عنوةً، ووجعٌ نسعى إليه ونطلبه.»

أَطبقتُ أهدابي على هزيمتي اللامنتهية، لأستيقظَ على وجعي وقد اتّخذ له مكانًا على شبكة الإنترنت. وأصبح بإمكان العالم أن يتفرَّجَ على توجّعاتي وتأوّهاتي متى شاء.

لستُ أدري مَنْ حَجَزَ لتفاصيل حزني وخرابي مكانًا على شبكة الإنترنت. كلُّ ما أدريه أنّ وجعي لم يعد سرّاً يَسْكن صدري، بل أصبح ملْكًا مشاعًا.

الجزائر